حلب من خلال كتابي الرحالة ناصر خسرو وابن جبير

د. بشرى جعفر احمد
الجامعة المستنصرية / كلية التربية

ملخص البحث:

شهد الفكر الإسلامي تقدما واضحا في مجال العلوم بمجالاته الواسعة منهـا العلـوم الجغرافية، ولعل ناصر خسرو في كتابه سفر نامه وابن جبير في كتابه رحلة ابـن جبيـر والمسمى أيضا تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، يمثلان أ نموذجا للتقـدم و التطـور الجغرافي الإسلامي ، وعليه فقد اخترت هذا الموضوع للمقارنة المنهجية والمعرفية عنـد الكاتبين.

مقدمة في كتب الرحالة في القرنيين الخامس والسادس الهجريين ومطلع القرن السابع الهجري .

مثل القرنيين الخامس والسادس الهجريين ومطلع القرن السابع الهجري/ الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين ومطلع القرن الثالث عشر الميلادي، باعتبار رحلة ابن جبير قد كانت في الربع الاخير من القرن السادس الهجري ومطلع القرن السابع الميلادي .

مرحلة التقدم والتطور في الجغرافية العربية ،إذ تقدم البحث الجغرافي تقدما واضحا ، بفضل المعنيين بهذا الجانب ،منهم الرحالون الذين تنقلوا في أنحاء العالم العربي و الإسلامي أما للتجارة أو للاطلاع أو لأداء فريضة الحج أو لطلب العلم ،فترك لنا هؤلاء الرحالة إرثا تاريخيا هاما من خلال وصفهم للحياة العامة في الشرق العربي ، منهم ناصر خسرو وابن جبير وابن بطوطة وغيرهم من الرحالة .

وبما إننا في صدد معرفة المعلومات عن مدينة حلب خلال هذه الفترة من كتب الرحالة ،فلابد من التعرف على اثنين من الرحالة اللذين زاروا مدينة حلب ونواحيها.

أول هؤلاء الرحالة : هو ناصر خسرو ،واحدا من رحالة القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ،وهو فارسي الأصل والمنشأ والثقافة[2] ،ولد سنة((394ه/1003م)) [3] في بلدة من أعمال بلخ[4] ، نال حظا وافرا من معارف عصره ، زار بلاد فارس وبلاد ما وراء النهر والهند

وبلاد العرب[5] ، ثم عاد واستقر بمدينة مرو[6] ،وشغل منصبا هاما عند السلاجقة[7] ،إذ كتب لجفري بك أخ طغرل بك[8] ، كان ناصر خسرو اسماعيليا [9]، في مذهبه بعد أن كان على المذهب السني ،إذ لاحظ أثناء زيارته مصر الرخاء العظيم والأسواق العامرة فأيقن أن الفضل في هذا الرخاء يعود إلى الدولة الفاطمية ومذهبها الأسماعيلي وان هذا المذهب كفيل بإنقاذ العالم الإسلامي من الهلاك، فاتصل ببعض رؤساء الشيعة الإسماعيلية في مصر، ويبدو إن الخليفة الفاطمي المستنصر بالله ((ت 427ـ 487ه /1035ـ1094م))[10] ،قد أحسن استقباله وأوكل له مهمة الدعوة للمذهب الاسماعيلي [11] ، ولما عاد إلى بلاده كان في مقدمة الدعاة للمذهب الأسماعيلي ،ويذكر انه تخفى في جبال خراسان بعد أن اشتد السلاجقة في طلبه بسبب خطر هذه الدعوة على مصالحهم[12] ، وبقي متخفيا هناك حتى وفاته سنة((542ه/1060م))[13]، كان ناصر خسرو واحدا من الرحالة الذين اتخذوا من الحج وسيلة لفهم خصائص البلدان وطبائع الشعوب وتسجيل ما كان متميزا فيها، وكانت مدينة حلب إحدى المدن التي حظيت باهتمامه كباقي مدن بلاد الشام الأخرى.

قضى ناصر خسرو ما يقارب سبع سنوات في الرحلات والتنقل في البلاد المختلفة، جاب البلاد العربية الإسلامية وكتب مشاهداته عنها، بدأ رحلته التي عرفت باسم سفرنامة من مرو سنة((437ه/1059م)) وانتهت سنة((444ه/1066م))[14].

كانت رحلته قبل رحلة ابن جبير بأكثر من مئة سنة[15] ،ابتدأها من مرو في خراسان مارا بأذربيجان[16]، وأرمينية[17]، والشام وفلسطين ومصر والحجاز ونجد وجنوب العراق وعاد إلى إيران منتهيا إلى مدينة بلخ في خراسان[18].

أعطى ناصر خسرو وصفا دقيقا لرحلته وهذا يدل على انه كان يدون مشاهداته أولا بأول ، وانه كان حريصا بالاتصال بالشعوب التي يمر بها، ويتفهم مظاهر الحضارة التي يشاهدها حتى عدت رحلته مصدرا من المصادر التاريخية الهامة.

لم يكن سائحا عابرا بل كان يقيم في البلدان التي يرحل إليها ويدون مشاهداته بدقة وإسهاب ، خلف ناصر خسرو مجموعة من المصنفات من أهمها رحلته هذه المسماة(سفرنامة)،(وكتاب زاد المسافرين) الذي يعد من أمهات كتب علم الكلام في المذهب الأسماعيلي ،كما ألف ديوانا شعريا يضم ما بحدود ألف بيت من الشعر [19].

كانت رحلته إلى الشرق العربي الإسلامي في فترة حرجة من فترات التأريخ الإسلامي الوسيط ، حيث كان التنافس بين الخلافة العباسية والفاطمية سواء كان في مصر أم بلاد الشام ، من جهة اخرى تمكن المرداسيون من السيطرة على حلب للفترة من ((415-472ه / 1020-1077م))[20] ،

وابعاد الحمدانيون عنها ،ايضا كان الصليبيون قادمين باتجاه الجزء الشمالي من حوض البحر المتوسط لغزو سواحل بلاد الشام .

أما الرحالة الآخر الذي قدم لنا معلومات عن حلب هو ابن جبير ، واحدا من الرحالة المسلمين وعالم جغرافي شهير .

جاءت شهرته من كتابه المسمى (رحلة ابن جبير) وهو ثمرة لثلاث رحلات قام بها ،أشاد بها ابن الخطيب قائلا [21]،((...وصنف الرحلة المشهورة ،وذكر مناقله فيها وما شاهده من عجائب البلدان ،وغرايب المشاهد ،وبديع الصنايع ،وهو كتاب مؤنس ممتع ،مثير، سواكن النفوس إلى الرفادة على تلك المعالم المكرمة والمشاهد العظيمة))

دون ابن جبير من خلال مشاهداته الكثير من المعلومات التي تعد وثائق هامة لأنه كان حسن الملاحظة وصريح العبارة.

عدت رحلته مصدرا هاما للباحثين في مجال التأريخ والاجتماع والحضارة العربية في القرن السادس الهجري /الثاني عشر الميلادي .

وابن جبير هو أبو الحسن محمد بن احمد بن جبير الكناني الأندلسي[22] ،ولد في بلنسية[23]، عام 539ه/1160م))[24]، وقيل سنة((540ه/1161م))[25] .

وهو من أسرة عربية عريقة سكنت الأندلس ،درس العلوم الدينية واللغوية واظهر مواهب شعرية ونثرية رشحته للعمل كاتبا لحاكم غرناطة وقتذاك أبو سعيد عثمان بن عبد المؤمن أمير الموحدين[26] ،كان ابن جبير يحضر مجالس شرابه فأراد أن يترك هذه المجالس ويتوب إلى الله بأن يتوجه إلى بيت الله الحرام لأداء فريضة الحج ، من هنا بدأت رحلته الأولى الشهيرة سنة((578 ــ581ه/1183ــ1185م))، إذ خرج فيها من غرناطة في الثامن من شوال سنة ((578ه/1183م))[27]، على ظهر مركب لبعض أهل جنوه قاصدا الإسكندرية نزلها بعد ثلاثين يوما من بدء رحلته ثم توجه إلى القاهرة ومنها إلى قوص بصعيد مصر[28]،ثم أجاز البحر إلى جده ومنها إلى مكة فادى فريضة الحج ومنها رحل إلى المدينة وبقي فيها ستة أشهر ثم سافر في سنة ((580ه/1184م))[29]،إلى الكوفة ومنها إلى بغداد والموصل ، كان يمكث في كل واحدة منها بعض الوقت للدراسة والفحص[30]،ومن الموصل انتقل إلى الشام[31]،حيث كان بيت المقدس تحت سيطرة الصليبيون[32]،ومن عكا رجع ابن جبير إلى بلاده على ظهر مركب مسيحي نزل بصقلية[33]،وشاهد معالمها،ثم رحل إلى بلاده إذ وصلها في 15 محرم من سنة ((581ه/1185م))[34]، أما رحلته الثانية إلى الشرق الإسلامي كانت في سنة ((585ــ587ه/1189ــ1191م))[35]،رحل بعد أن سمع بأنباء تحرير بيت المقدس من سيطرة

الصليبيون على يد صلاح الدين الأيوبي[36]، سنة ((583ه/1183م))[37]، فدفعته نفسه إلى زيارة هذه الأماكن وعلم الإسلام يرفرف عليها .

ورحلته الثالثة والأخيرة إلى الشرق الإسلامي كانت بعد وفاة زوجته التي حزن عليها كثيرا ،فلم يجد أمامه من عزاء إلا بحج بيت الله الحرام ،فكانت رحلته في سنة ((614ه/1217م))[38] ،أقام بمكة مدة ثم غادرها إلى بيت المقدس والقاهرة والإسكندرية، أقام في الإسكندرية محدثا حتى وفاته فيها في العام نفسه ((614هـ/1217م))[39] .

عاصر ابن جبير صلاح الدين الأيوبي، عصر كانت فيه بلاد العرب في حالة فوضى سياسية وإدارية سواء كان في بلاد الشام ، أو العراق الذي كان تحت سيطرة السلاجقة[40] ، ((ت447ـ656هـ/ 1069ـ1278))[41]، فثبت مشاهداته على شكل مذكرات يومية كتبها باليوم والشهر بأوراق منتظمة، لم يجمعها هو بل جمعها بعض تلاميذه ونشروها بعد وفاته بأسم((تذكرة بالأخبار عن اتفاق الأسفار))[42]، في حين أطلق عليها المستشرقون والعرب اسم((رحلة ابن جبير))[43]، تتجلى أهمية هذه الرحلة بالوصف الدقيق لمشاهداته آثار الأقاليم والمدن التي زارها ،وتحديد مواقعها الجغرافية ،ومدى البعد التاريخي لها، وطبيعة واقعها الاقتصادي فضلا عن حياتها الاجتماعية وما فيها من غرائب .

حلب من خلال وصف ناصر خسرو

نالت مدينة حلب اهتمام الرحال ناصر خسرو بشكل واضح لأهميتها على مدى التاريخ،زارها ومكث فيها ما يقارب تسعة أيام ،إذ رحل إليها في اليوم الثاني من رجب سنة((438هـ/1047م))وخرج منها في الحادي عشر من رجب سنة((438هـ/1047م))[44]، ولقد حدد لنا موقعها شمال مدينة حما بعشرين فرسخا[45]، وقال إنها مدينة جميلة وعامرة.

ألقى ناصر خسرو الضوء على النواحي العمرانية والاقتصادية فيها بعد أن تنقل فيها وشاهدها وذكر الأهمية الإستراتيجية لها وشهرتها التي نالتها بسبب أهمية موقعها على خط تجاري بري هام ربط بلاد الشام مع كل من ديار بكر،[46] ومصر والعراق.

وركز ناصر خسرو على سور حلب وذكر انه قاس هذا السور بنفسه فكان ارتفاعه خمسا وعشرين ذراعا. ووصف قلعتها. تلك القلعة التي كثيرا ما صدت الجيوش الغازية التي عجزت عن أن تنال شيئا من حلب، شيدت هذه القلعة على ربوة عالية:((وبها قلعة عظيمة مشيدة كلها على الصخر))[47]، وقد شبه ناصر خسرو قلعة حلب بقلعة بلخ في بلاد فارس لمنعتها وحصانتها، وقال إنها مدينة عامرة، أبنيتها متلاصقة ،لها شهرة تجارية واسعة، ومركز للتجارة من بلاد الشام والروم وديار بكر ومصر والعراق، وبها تحصل المكوس (الضرائب)، عما يمر بها من هذه البلدان، وذكر ناصر

خسرو إن الوزن بسوق حلب بالرطل الظاهري، وهو أربعمئة وثمانون درهما[48] ،اعتمد هذا الرطل في مصر أيام الخليفة الفاطمي الظاهر لإعزاز دين الله((411ـ427هـ/1020ـ1032م))[49].

كما أشار ناصر خسرو إلى أبواب حلب بقوله[50]((...ولها أربعة أبواب، باب اليهود ،وباب الله ،وباب الجنان، وباب إنطاكية)).

ولم يقتصر ناصر خسرو بوصفه لحلب كمدينة من مدن الشام بل أعطى وصفا دقيقا للمدن القريبة منها وحدد مواقعها وذكر ما فيها من أسواق و موازين ومكاييل وبرز بشئ من التفصيل محاصيلها الزراعية التي كانت تزرع في الصيف والشتاء، فضلا عن ذكره اسواقها ومساجدها وأنهارها[51]، واهم المدن التي ذكرها هي مدينة منبع وحماة ومعرة النعمان[52]، وبذلك يكون كتاب(سفرنامه) مصدرا مهما من مصادر التأريخ الإسلامي اذ تمكن ناصر خسرو من رسم صورة واضحة للواقع الحضاري والاقتصادي للمدن التي زارها خلال رحلته هذه.

حلب من خلال وصف ابن جبير

مثل ابن جبير جانبا مهما من جوانب التقدم الجغرافي العربي الذي بدأ منذ القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي ، وهو احد الرحالة المسلمين والذي أبدع بوصفه الدقيق للبلدان التي زارها والذي يمكن عده من الجغرافيين السواح ، فضلا عن اهتمامه بالجغرافية مما جعله يحمل صفه السائح والباحث في آن واحد ، امتاز أسلوبه بالحيوية وسهولة التعبير والسلاسة ، عني بتسجيل الجوانب الحضارية والدينية والاجتماعية والثقافية للبلدان التي زارها ، وملاحظاته التي سجلها تعد مادة غنية تفيد الباحثين على تلمس الأحوال العامة في الشرق الأدنى بصفة عامة وأحوال المسلمين بمناطق نفوذ الصليبين ببلاد الشام بصفة خاصة .

وحلب موضوع دراستنا هي إحدى المدن التي زارها ابن جبير سنة((580هـ\1184م)) ، أثناء رحلته إلى بلاد الشام، بدأ وصفه لمدينة حلب من حيث أهميتها وعمقها التأريخي وصمودها أمام الأخطار بقوله [53]: ((بلدة قدرها خطير ، وذكرها في كل زمان يطير ، خطابها من الملوك كثير ، ومحلها من التقديس أثير ، فكم هاجت من كفاح ، وسلت عليها من بيض الصفاح)) ، وصفها مبهرا بأنها عروس المدن ،فني أمراؤها من بني حمدان [54] ، ولم تفن ((هذه حلب كم أدخلت من ملوكها في خبر كان ، ونسخت ظرف الزمان بالمكان ... ودانت بالغدر فيمن خان ، وتجلت عروس بعد سيف دولتها ابن حمدان ...)) [55]، ثم ينتقل ابن جبير من الوصف العام لها إلى الوصف الدقيق ، ومن الزوايا المهمة التي تعرض لها القلعة ، فقد أشار إلى قلعة حلب وكأنه قد تأملها بشكل دقيق ، أشار إلى حصانتها ومنعتها وأشار إلى أسوارها وخندقها ، قال إن السور الأعلى لهذه القلعة كله أبراج منتظمة ((فيها العلالي المنيفة ، والقصاب المشرفة ، قد تفتحت كلها طيقانا ، وكل برج منها مسكون ،

وداخلها المساكن السلطانية ، والمنازل الرفيعة الملوكية)) [56] ،وقال ان من شرف هذه القلعة أنها كانت قديما ربوة يأوي إليها إبراهيم الخليل (عليه السلام) مع أغنام له يحلبها ويتصدق بلبنها للفقراء فلذلك سميت حلب ، ويضيف ابن جبير إن بها مقاما له يزوره الناس .

وأضاف إن في القلعة خندقا لا يكاد البصر يبلغ مدى عمقه والماء ينبع فيه [57] .

ويبين ابن جبير إن من كمال حصانة هذه القلعة إن الماء بها نابع ((وقد صنع عليه جبان، فهما ينبعان الماء فلا تخاف الضمأ ابد الدهر ، والطعام يصبر فيها الدهر كله ...))[58] .

لم يقتصر وصف ابن جبير لحلب على قلعتها فقط بل برز الجوانب الحضارية في المدينة حيث وصف أسواقها وقيساريتها وجامعها ، مبينا أن في حلب أسواق كبيرة مستطيلة متصلة بانتظام مسقفة بالأخشاب ، وقد جاء ذلك بقوله [59]: ((وأما البلد فموضوعه ضخم جدا ، حفيل التركيب ، بديع الحسن، واسع الأسواق، كبيرها متصلة الانتظام مستطيلة تخرج من سماط صنعة إلى سماط صنعة أخرى ، إلى أن تفرغ من جميع الصناعات المعدنية ،وكلها مسقفة من الخشب ،وسكانها في ظلال وارفة ،وكل سوق منها تقيد الأبصار حسنا وتستوقف ألمستوفز تعجبا))

وقال إن فيها الحوانيت والخانات ،وحوانيتها فيها خزائن من الخشب البديع النقش ،أما خاناتها فعددها لا يحصى .

ووصف جامع المدينة بقوله انه من أحسن الجوامع وأجملها ،ويستطرد في وصفه قائلا إن الجامع فيه بلاط متسع بصحنه الواسع مفتح كل أبوابه ،عددها يزيد على الخمسين بابا ،تستوقف الناظر لحسن منظرها وفيه بئران معينان ، ووصف زينة هذا الجامع بقوله انه مرصع بالعاج والأبنوس من المنبر إلى المحراب مع ما يليها من جوار القبلة ،وأضاف إن فيه منبرا لم ير مثله في أي بلد من البلاد على شكله وغرابة صنعته فاستوقفه جمالها بقوله[60]،((...فتتجلى العيون منه أبدع منظر يكون في الدنيا، وحسن هذا الجامع المكرم أكثر من أن يوصف))، ويضيف ابن جبير إن في حلب مدرسة للحنفية تتصل بالجانب الغربي من الجامع قال إنها من احفل ما شاهده من المدارس ((بناءأ وغرابة صنعة،جدارها القبلي مفتح كله بيوتا وغرفا ولها طيقان يتصل بعضها مع بعض))،

وقال ابن جبير وهو يبين الجانب الفكري للمدينة ، إن في حلب خمس مدارس أخرى ،ولها ماريستان ،وفيها نهر جار وبستان ،وينهي وصفه لها بقوله ،إنها من بلاد الدنيا التي لا نظير لها والوصف فيه يطول[61]، ولم يقتصر وصف ابن جبير لمدينة حلب فقط بل أعطى وصفا لبعض المدن والمواضع القريبة منها وحدد مواقعها بالفراسخ ،وذكر ما فيها من آثار وقرى وانهار وخانات ووصف أبوابها وبين ما فيها من أشجار وثمار وبساتين ثمارها من الزيتون والتين والفستق وأنواع الفواكه .منها قنسرين ومنبج ومعرة النعمان.

دراسة مقارنة بين ناصر خسرو وابن جبير

جاءت كتابات الرحالة ناصر خسرو وابن جبير في القرن الخامس والسادس الهجريين ومطلع القرن السابع الهجري فكانت أنموذجا رائعا في وصف البلدان، وكلاهما سافر وتنقل في البلدان، وحملهما تيار الأسفار، واستهوتهما حياة التنقل والسياحة على طريقة المسلمين لتوفر وسهولة الوسائل التي يسرت أمر المهتمين من الجغرافيين على الانتقال في البلدان الإسلامية المختلفة ،منها حج بيت الله الحرام الذي يعد ركن مهم من أركان الإسلام والذي يدعو الإسلام كافة إلى التوجه إلى هذه الأرض المباركة فقد أدت هذه الفريضة إلى التنقل بين البلدان الإسلامية بغية الوصول إلى بيت الله الحرام، أضف إلى ذلك اهتمام العديد من المؤرخين الجغرافيين بدراسة العالم الإسلامي، فضلا عن انتعاش حركة التنقل، وانتعاش التبادل التجاري والاستقرار النسبي الذي رافق الرحلات خلال هذه المدة .

عند إجراء مقارنة بين ناصر خسرو وابن جبير لابد من معرفة أمور عامة اشتركا بها في كتاباتهما أو انفردا بها احدهما عن الآخر؛ كان ناصر خسرو وابن جبير من رحالة القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين ومطلع القرن الثالث عشر الميلادي، فقد كانت رحلة ناصر خسرو قبل رحلة ابن جبير بمئة سنة، نالت حلب اهتمامهما كمدينة من مدن بلاد الشام،وهما ينسبان إلى نفس المدرسة ممن عنوا بالجغرافية الوصفية للمدن والقصبات ،الا انهما يختلفان في بعض الأمور ،منها أن ناصر خسرو كانت له رحلة واحدة إلى الشرق العربي الإسلامي ،في حين رحل ابن جبير ثلاث رحلات الى الشرق العربي الإسلامي ،وكلاهما كان يقيم في البلدان التي يرحلون لها ليتفهموا مظاهر الحضارة التي يشاهدونها ،لكن ابن جبير كان يمكث أيضا للدراسة والفحص ،وكلاهما ممن درس العلوم الدينية واللغوية ولهما المواهب الشعرية والتي انعكست على وصفهم للأقاليم التي زاروها، وكلاهما كانت له القدرة الفائقة على أن يعدد المدن والقرى وأن يحدد مواقعها مع الوصف الدقيق لها وإبراز أهم معالمها وما جرى فيها ،فقضى ناصر خسرو ما يقرب من سبع سنوات في رحلته وتنقله بين البلاد المختلفة ، بينما كانت لابن جبير ثلاث رحلات باتجاه المشرق الإسلامي لأداء فريضة الحج شاهد فيها عجائب البلدان ، ثبت ناصر خسرو مشاهداته أول بأول في كتابه ((سفرنامه))،بينما كانت مشاهدات ابن جبير على شكل مذكرات يومية لم يدونها هو بل جمعها طلابه بعد وفاته، دفعتهما إلى هذه الرحلة نفس الظروف وهو حج بيت الله الحرام تمكنا من خلالها من الاطلاع على الأقاليم والمدن المختلفة ، فأمعنا فيها وكانا حريصين على دراسة أحوالها من خلال المعايشة اليومية فيها ،برغم أن ناصر خسرو فارسي الأصل وابن جبير من جذور عربية لكن كليهما كان مسلما ، تميز وصفهما بالدقة برغم أن عرضها للمادة لا يخلو من آثار الصنعة والتكلف .

لقد جاءت معلومات ناصر خسرو وابن جبير من خلال مشاهدتهما الشخصية واطلاعهما على أحوال الشعوب التي زاروها ولم يتأثرا بكتابات من سبقهم من الرحالة والجغرافيين العرب ،كابن حوقل والمقدسي من جغرافي القرن الرابع الهجري .

لقد شملت كتابات هؤلاء الرحالة جوانب عديدة لاسيما فيما يتعلق بالجانب الحضاري لحلب كأنهما اتفقا على ابراز هذا الجانب اكثر من غيره ، مع إبراز نشاطها الاقتصادي ،فقد حدد الاثنان موقع حلب ووصفا قلعتها العتيدة ،لكن وصف ناصر خسرو كان بشئ من الإيجاز لها ،عكس ابن جبير الذي كان مبهرا بها وأسهب بوصفها متأثرا بموهبته الشعرية والنثرية والتي رشحته للعمل كاتبا لحاكم غرناطة، أكد ناصر خسرو في وصفه لحلب على أهميتها التأريخية وشهرتها التي نالتها بسبب موقعها الإستراتيجي الهام على خط تجاري ربطها بمصر والعراق وديار بكر ،ووصف سورها الذي قال ان ارتفاعه يبلغ خمسة وعشرون ذراعا ، في حين لم يتطرق ابن جبير إلى قياسها أو ارتفاعها ،شبه ناصر خسرو قلعة حلب بقلعة بلخ في بلاد فارس لمنعتها وحصانتها، واشار ناصر خسرو في وصفه لحلب الى مكاييلها واوزانها ،في حين لم يبين لنا ابن جبير هذا الجانب، وقال ناصر خسر وان في حلب كانت تحصل المكوس عما يمر بها من القوافل التجارية الخارجية .

وصف ناصر خسرو وابن جبير قلعة حلب وعدوها من ابرز المعالم الحضارية فيها وصفوا أبوابها وقوة حصانتها ،جاء وصف ابن جبير أكثر دقة من وصف ناصر خسرو حين وصف خندقها وعيون الماء الجارية فيها ،ووصف سورها وأبراجها، وقال ابن جبير ان من شرف هذه القلعة إنها كانت قديما ربوى يأوي إليها إبراهيم الخليل (عليه السلام)مع أغنام له ،وهذا ما لم يذكره ناصر خسرو في وصفه لها .

من جهة اخرى نلاحظ ان ابن جبير قد فصل اكثر في وصف اسواق حلب في حين اشار ناصر خسرو اليها اشارة عابرة ،فقد تطرق ابن جبير إلى انتظام هذه الأسواق وطريقة تصميمها وبنائها وتقسيماتها وذكر حوانيتها ومخازنها .

كما ذكر ابن جبير ان في حلب عددا من الخانات ، في حين لم يذكر ناصر خسرو ذلك .

وأكد ابن جبير على وصف جامع حلب وصفا دقيقا بكافة ملحقاته لأنه يعد في نظره من أحسن الجوامع وأجملها ،فوصف أبوابه وصحنه ومنبره ووصف زينته ، في حين أشار إليه ناصر خسرو إشارة عرضية ، كما انفرد ابن جبير عن ناصر خسرو بذكر مدارس حلب ، منها المدرسة الحنفية التي عدها من احفل المدارس التي شاهدها من حيث البناء والصنعة ، وقال انه شاهد في حلب ماريستان ، كما انفرد ابن جبير بذكر انهار حلب وبساتينها وما كان لها من اثر على خيرات حلب .

وأشار ناصر خسرو وابن جبير الى ضواحي حلب ويكاد يكون وصفهم واحدا لها ،اذ قالوا إن فيها الآثار والقرى والأنهار والخانات وفيها الثمار الوفيرة ،كالتين والزيتون والفستق وأنواع الفواكه الأخرى .

وأخيرا نلاحظ أن قلعة حلب نالت اهتمام الرحالتين ناصر خسرو وابن جبير حتى طغت على وصفهم لآثارها الأخرى أو ذكر تاريخها ،أو مظاهر الحياة العامة فيها ،برغم أن الفارق الزمني بين الرحالتين قرن من الزمن .

الخاتمة :

جاءت كتابات ناصر خسرو وابن جبير في القرنين الخامس والسادس الهجريين ومطلع القرن السابع الهجري/الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين ومطلع القرن الثالث عشر الميلادي، فكانت الذروة التي بلغها الرحالون في وصف البلدان خلال هذه الحقبة الزمنية .

لقد اشتملت كتابات هؤلاء الرحالة على الجوانب الحضارية للمدينة مع اشارات الى ما يتعلق بالنشاط الاقتصادي لها ، فقد قدموا معلومات عن ابرز المعالم الحضارية للمدينة من دون ذكر لاحوالها الا جتماعية او عادات اهلها او طبيعة علاقاتهم مع المدن الاخرى ،او الوضع السياسي العام ، وهذا ما يبين ان رحلتهم الى حلب كانت رحلة مسافر يريد النظر ومشاهدة ابرز مظاهر الحضارة فيها ، فوصفوا ما شاهدوه ،وأقصروا فيه على ذكر جانب معين من دون غيره.

لكن برغم ذلك فان ما كتبوه عنها لا يمكن لاي باحث في تأريخها ان يتغافل عنه لاهميته في كشف جانب معين من تاريخ هذه المدينة العريقة ،حتى عدت كتاباتهم مصدرا هاما من مصادر التأريخ الاسلامي.

الهوامش

1- حلب ،حلب في اللغة من حلبت احلب حلبا ،وحلب أيضا اللبن الحليب ،يقال حلبنا وشربنا لبنا حليبا ، وحلب هو استمداد الشئ وحلب مدينة مسور بحجر ابيض وفيها ستة أبواب وقيل سبعة ابواب تقع في بلاد الشام بالجزء الشمالي من سورية ابن زكريا ، ابو الحسن احمد بن فارس بن زكريا ،(ت395ه/1017م) ،معجم مقاييس اللغة ،دار الكتب العلمية ،بيروت ،2008، ط2،ج1،ص313؛الرازي محمد بن ابي بكر بن عبد القادر ،(ت666ه/1266م)،مختار الصحاح،دار ومكتبة الهلال ،بيروت ،1983، ص148؛ ،ياقوت الحموي ،شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله (ت626ه/1246م)،معجم البلدان،دار إحياء التراث العربي ،بيروت،2008،ج3،ص166–169؛ الحميري ، محمد بن عبد الله بن عبد المنعم ،(ت 727ه/1327م) ،الروض المعطار في خبر الاقطار ، تحقيق ، احسان عباس ، مكتبة لبنان ، 1984، ط2 ، ص196 .

2- زيادة،نقولا،الرحالون المسلمون والأوربيون .الشرق العربي في العصور الوسطى ،الدار العربية للموسوعات،بيروت،2010،ص81

3- حسن زكي محمود، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، دار المعارف، مصر، 1945،ص[56].

4- بلخ،مدينة مشهورة بخراسان،ياقوت الحموي ،معجم البلدان،ج2،ص378.

5- حسن، الرحالة المسلمون،ص[56].
6- مرو، مدينة بخراسان وهي قصبتها، ياقوت الحموي، معجم البلدان ج7،ص[253].
7- زيادة،الرحالون المسلمون، ص[81]، حسن، الرحالة المسلمون، ص[56].اما اصل السلاجقة فأنهم ينحدرون من قبيلة((قنق)) التركمانية وهي واحدة من مجموعة القبائل التركمانية المعروفة ب((الغز)) استوطنت هذه القبائل والبالغ عددها ثلاث وعشرين قبيلة في منطقة ما وراء النهر والتي يطلق عليها اليوم اسم ((تركستان)) ،ثم تحركت هذه القبائل في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي باتجاه آسيا الصغرى في هجمات مستمرة وتمكنوا من فرض سيطرتهم على بلاد فارس وتغلبوا على ألغزنويين والبويهيين ،وتوغلوا داخل أراضي الدولة البيزنطية اصطدموا بجيش الروم ،من جهة اخرى فان الوضع السياسي في العراق كان مشجعا للدخول إلى بغداد بسبب ضعف الدولة البويهية ،وضعف الخلافة العباسية ،فتمكن طغرل بك من الدخول إلى بغداد سنة((447ه/1055م))،الصلابي،علي محمد،دولة السلاجقة وبروز مشروع إسلامي لمقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي ،دار المعرفة ،بيروت،2006،ص22 وما بعد .
8- جفري بك وطغرل بك، من السلاطين السلاجقة تمكنا من مد نفوذهما الى الكثير من انحاء خراسان على حساب ألغزنويين وأصبح لهم قوة في خراسان، ودخل طغرل بك مدينة نيسابور فجلس على عرش مسعود الغزنوي، ولقب نفسه بالسلطان المعظم ركن الدنيا والدين، وأعلن قيام دولة السلاجقة، وتاريخ طغرل بك امتد لفترة من(447ــ455هـ/1055ــ1063م)،أمين، حسين، تاريخ العراق في العصر السلجوقي، المكتبة الهلالية، مطبعة الإرشاد، بغداد، 1965، ص[52] ؛فوزي ،فاروق عمر،الخلافة العباسية في عصورها المتأخرة، دار الحكمة ، بغداد، 1987،ص76.
9- الأسماعيلية : فرقة من فرق الشيعة ، سميت بهذا الاسم لأنها وقفت بسلسلة الإمامة عند إسماعيل ، الابن الأكبر لجعفر الصادق ، الإمام السادس ،انتشرت الإسماعيلية في مصر والشام وبلاد فارس ،ويذكر إن وفاة إسماعيل كانت في المدينة سنة
143ه/766م) ، ابن خلدون ،عبد الرحمن بن محمد ،(ت808ه/1405م) ، تاريخ ابن خلدون ، المسمى العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1971 ، ط3 ، ج1 ، ص21 وما بعد ؛ البستاني ،بطرس ،دائرة المعارف الاسلامية ،دار المعرفة ،بيروت ،بلات ،مادة الاسماعيلية .
10- ابن ظافر، جمال الدين علي الأزدي(ت623هـ/1226م)، أخبار الدول المنقطعة(القسم الخاص بالفاطميين)، تحقيق الفردية فرية، المعهد الفرنسي، القاهرة ، 1972، ص67ــ81.
11- حسن،الرحالة المسلمون،ص57.
12- المرجع نفسه والصفحة.
13- زيادة، الرحالون المسلمون، ص82.
14- خسرو، ناصر(ت542ه/1060م)، سفرنامه، ترجمة يحيى خشاب، مطبعه لجنه التأليف والترجمة، القاهرة، 1945، ص2.
15- المصدر نفسه والصفحة.
16- أذربيجان، قصبة تتصل من الشمال ببلاد الديلم والجبل ، فيها القلاع الكثير والخيرات الوفيرة ، ابن عبد الحق ، صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق ،(ت739ه/1338م) ،مراصد الاطلاع على اسماء الامكنة والبقاع ،تحقيق علي محمد البجاوي ،دار احياء الكتب العلمية ،القاهرة ،1954، ص47.
17- أرمينية، بلد معروف يضم كورا كثيرة ،فتحت في زمن الخليفة عثمان بن عفان (رض)،فتحها سليمان بن ربيعة الباهلي سنة (24) ،الحميري ، الروض المعطار،ص25 .

18- خسرو، سفرنامه، ترجمة يحيى الخشاب ، ص3

19- خسرو ،سفرنامة ، ترجمة وتقديم ، احمد خالد البدلي ، الرياض، 198 ، ص 19.

20- ابن خلدون ، تاريخ ،ج6، ص39وما بعد؛ كحالة ، عمر رضا ،معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ، 1997، ج3،ص1074.

21- أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد بن أبي احمد(ت776هـ/1398م)، الإحاطة في أخبار غرناطة، دار الكتب العلمية ،بيروت، 2003،ح2، ص146.

22- المصدر نفسه ، ص147 .

23- بلنسية ، مدينة مشهورة في الاندلس تقع شرق قرطبة ، ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج2 ، ص386 .

24- ابن الخطيب، الإحاطة في إخبار غرناطة، ج2،ص 152.

25- المصدر نفسه والصفحة ؛ حسن، الرحالة المسلمون ، ص70.

26 - ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج2، ص146.

27- المصدر نفسه ،ج2 ،ص146، زيادة ،محمد مصطفى ،رحلة ابن جبير ورحلة ابن بطوطة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة،1939، ص12

28- ابن جبير،ابو الحسن محمد بن احمد بن جبيرالكناني الاندلسي(614ه/1217م)، الرحلة ،دار التراث ،بيروت،1968،ص12وما بعد

29- زيادة،رحلة ابن جبير،ص12

30- لجنة من ادباء الاقطار العربية ،كتاب الرحلات ،دار ألمعارف ،القاهرة ،1956،ص70.

31- ا لمرجع نفسه،ص71

32- ا لصليبيون:جاءت موجات الصليبيون إلى الشرق العربي الإسلامي خلال الفترة من(489-692ه/1095-1291م)،بقيادة بعض ملوك أوربا أو بعض أمرائها الإقطاعيين أو رجال الدين ،بدافع من البابوية للسيطرة على بيت المقدس ،عاشور،سعيد عبد الفتاح،الحركة الصليبية ،مكتبة الانجلو المصرية،القاهرة،1963،ص؛زيادة،الرحالة المسلمون،ص88

33- صقلية،جزيرة على شكل مثلث في شرق الاندلس ، ابن حوقل ، ابو القاسم النصيبي (367ه /977م) ،صورة الارض ،شركة نوابغ الفكر ، القاهرة ، 2009،ص11؛ ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج5 ،ص 196 .

34- زيادة ،الرحالون المسلمون ،ص88؛حسن ،الرحالون المسلمون في العصور الوسطى،ص87

35- زيادة ،المرجع نفسه،ص89

36 - صلاح الدين الايوبي، هو أبو المظفر يوسف بن أيوب الملقب بصلاح الدين ، ولد في تكريت سنة 532ه/1137م،انتقل مع والده نجم الدين أيوب وعمه أسد الدين شيركوه إلى الموصل،وعمل مع اتابكها عماد الدين زنكي ومن بعده ابنه نور الدين محمود،ومن أهم المهام الذي كلفه بها نور الدين هو السفر إلى مصر مع أسد الدين شيركوه لنصرة أهلها ضد الصليبيين سنة (564ه/1168م)،ولما أصبح أسد الدين وزيرا للفاطميين هناك بقي صلاح الدين معه،وقد خلفه في هذا المنصب إلى سنة 567ه/1171م)،عندها أعلن الخطبة للخليفة العباسي واستقل بالحكم لنفسه سنة 570ه/1175م)،كانت وفاته سنة(589ه/1193م)،ابن الاثير،ابو الحسن علي بن ابي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم ،(ت630ه/1252م) الكامل في التاريخ ،دار الكتب العلمية ، بيروت، 2006 ، ط4، ج10،ص10 وما بعد؛ الزركلي ، خير الدين ، الاعلام، دار العلم للملايين ، بيروت ، 1980 ، ط5 ، ج8، ص221 .

37- حسن،الرحالة المسلمون في العصور الوسطى،ص88

38- المرجع نفسه والصفحة

39- زيادة ،الرحالون المسلمون،ص87

40- كتاب الرحلات،ص86

41- السامرائي ،خليل ابراهيم ،وطارق فتحي سلطان وجزيل عبد الجبار الجلمود ، تاريخ الدولة العربية الاسلامية في العصر العباسي (132-656ه /749-1258م) ،دار الكتب للطباعة والنشر ، الموصل ، 1988 ،ط2، ص 203 وما بعد .

42- زيادة ، الرحالون المسلمون ، ص88 .

43- المرجع نفسه والصفحة .

44- المرجع نفسه والصفحة .

45- الفرسخ = ثلاثة اميال ، والميل يعادل اربعة الآف ذراع ،فيكون مقدار الفرسخ اثني عشر الف ذراع ،الفيومي ،احمد بن محمد بن علي المقري ،المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي ،المكتبة العلمية،بيروت ،بلات،ج2 ،ص588؛هنتس،فالتر ،المكاييل والاوزان الاسلامية وما يعادلها في النظام المتري ،ترجمة كامل العسلي ،منشورات الجامعة الاردنية ،عمان ،1970، ص94.

46- ديار بكر ،جاء اسمها نسبة الى بكر بن وائل احدى قبائل ربيعة ،والتي هاجرت اليها بحدود القرن السادس الميلادي ،وهي ديار واسعة حدودها من غرب دجلة الى بلاد الجبل المطل على نصيبين الى دجلة وآمد وميافارقين ،وهي جزء من ديار ربيعة، ياقوت الحموي ، معجم البلدان ،ج4 ،ص330.

47- خسرو، سفرنامة ، ترجمة يحيى الخشاب ، ص10.

48- المصدر نفسه ،ص11

49- المقريزي ،تقي الدين احمد بن علي (ت845ه/1441م) ،اتعاظ الحنفا باخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، تحقيق ،جمال الدين الشيال ،لجنة إحياء التراث الإسلامي ،القاهرة ،1967،ج2،ص124وما بعد .؛هنتس ، المكاييل والأوزان ، ص30 وما بعد

50- خسرو ، سفرنامة ، ترجمة يحيى الخشاب ،ص10-11

51- المصدر نفسه،ص10-12.

52- زيادة ، رحلة ابن جبير ،ص12، تنسب معرة النعمان إلى الصحابي النعمان بن بشر ، كان والي حمص وقنسرين في عهد معاوية بن أبي سفيان وابنه يزيد بن معاوية ، للمزيد ينظر، الجندي ، محمد سليم ،تاريخ معرة النعمان ، مطبعة الترقي ، دمشق، 1963،ج1 ، 27 وما بعد .

53- ابن جبير ، الرحلة ،ص202.

54- بني حمدان : أو الحمدانيون ،نسبوا إلى حمدان بن حمدون ، احد رجال قبيلة تغلب العدنانية ، حكموا الموصل وارض الجزيرة بدا من سنة (292ه/ 905م) ، كما بسطوا نفوذهم إلى شمال بلاد الشام سنة (333ه/944م) ، البستاني ، دائرة المعارف الإسلامية ، مادة الحمدانيون .

55- ابن جبير، الرحلة ،ص202-203.

56- المصدر نفسه والصفحة .

57- المصدر نفسه والصفحة .

58- المصدر نفسه والصفحة.

59- المصدر نفسه والصفحة.

60- المصدر نفسه ،ص204،

61- المصدر نفسه والصفحة .

قائمة المصادر والمراجع

1- ابن الأثير ، أبو الحسن علي بن أبي الكرك محمد بن محمد بن عبد الكريم ،(ت630ه/1252م) ، الكامل في التاريخ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 2006 .

2- ابن جبير ،ابو الحسن محمد بن احمد بن جبير الكناني الاندلسي (614ه/1217م)، الرحلة ، دار التراث ، بيروت ، 1968 .

3- الحميري ، محمد بن عبد المنعم ،(ت727ه/1327م) ، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق أحسان عباس ، مكتبة لبنان ، 1984.

4- ابن حوقل ،أبو القاسم بن حوقل ألنصيبي(ت367ه/977م)،صورة الأرض،شركة نوابغ الفكر،القاهرة،2009 .

5- خسرو،ناصر(ت542ه/1060م)،سفرنامة،ترجمة احمد خالد البدلي ،الرياض ، 1982.

6- خسرو،ناصر،سفرنامة،ترجمة يحيح الخشاب ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة ، القاهرة ، 1945.

7- ابن الخطيب،أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن سعيد بن أبي احمد(ت776ه/1398م)،الإحاطة بأخبار غرناطة،دار الكتب العلمية، بيروت،2003.

8- ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد (ت808ه/1405م) ، تاريخ ابن خلدون ، المسمى العبر وديوان المبتدأ والخبر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر ،دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1971 .

9- الرازي ، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر ، (ت666هـ/ 1266م) ، مختار الصحاح ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ،1983.

10- ابن زكريا ، أبو الحسن احمد بن فارس بن زكريا ، (ت 395هـ/ 1017م) ، معجم مقاييس اللغة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 2008 .

11-ابن ظافر،جمال الدين علي الازدي(623ه/1226م)،أخبار الدول المنقطعة (القسم الخاص بالفاطميين) ، الفردية فريد ، المعهد الفرنسي ،القاهرة ،1972.

12- ابن عبد الحق ، صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق (ت739ه/1338م) ،مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ، تحقيق علي محمد البجاوي ، دار إحياء الكتب العلمية ، القاهرة 1954.

13- المقريزي،تقي الدين احمد بن علي(ت845ه/1441م)،اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء ،تحقيق جمال الدين الشيال،لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة 1967.

14- ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله(ت626ه/1248م) ،معجم البلدان،دار احياء التراث العربي،بيروت،2008.

قائمة المراجع:

1- أمين،حسين،تاريخ العراق في العصر السلجوقي، المكتبة الهلالية مطبعة الرشاد،بغداد،1965.

2- البستاني ، بطرس ، دائرة المعارف الاسلامية ، دار المعرفة ، بيروت ، بلات ، مادة الاسماعيلية .

3- الجندي ، محمد سليم ، تاريخ معرة النعمان ، مطبعة الترقي ، دمشق ، 1963.

4- حسن،زكي محمد،الرحالة المسلمون في العصور الوسطى،دار المعارف .
5- الزركلي ، خير الدين ، الإعلام ، دار العلم للملايين ، بيروت ، 1980 .
6- زيادة،نقولا،الرحالة المسلمون والأوربيون الى الشرق العربي في العصور الوسطى،الدار العربية للموسوعات،بيروت 2010.
7- زيادة ،محمد مصطفى،رحلة ابن جبير ورحلة ابن بطوطة،مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر،القاهرة،1939.
8- السامرائي ،خليل ابراهيم ، وطارق فتحي سلطان ، وجزيل عبد الجبار الجرمود ، تاريخ الدولة العربية الاسلامية في العصر العباسي ، (132- 656 هـ/ 749 -1258 م) ، دار الكتب للطباعة والنشر ، الموصل ، 1988، ط2 .
9- الصلابي ،علي محمد،دولة السلاجقة وبروز مشروع إسلامي لمقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي ،دار المعرفة ،بيروت ،2006.
10- عاشور،سعيد عبد الفتاح،الحركة الصليبية،مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة،1963.
11- فوزي ،فاروق عمر،الخلافة العباسية في عصورها المتأخرة ،دار الحكمة،بغداد،1987.
12- الفيومي،احمد بن محمد بن علي المقري،المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي،المكتبة العلمية،بيروت ،بلات،
13- لجنة من ادباء الاقطار العربية ، كتاب الرحلات ، دار المعارف ، القاهرة ، 1956 .
14- هنتس،فالتر،المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري ، ترجمة كامل العسلي ،منشورات الجامعة الأردنية،عمان 1970.

Abstract

The Islamic thought witnessed clear development in sciences field including Geographic sciences . Nasser Khesro in his book (safarname) and Ibn Jubeer in his book (Ibn –Jubeer travel) also called (tazkera bl akhbar an atafakat al asfar) considered sample of Islamic Geographical developing and progressing .

So، I have choice this research to methodology perception contrast of two writers.